«إكسبو 2020»... نجاح دولة متصالحة مع نفسها

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

عندما يرى المرء بأمّ عينيه الحدث المتمثّل بـ"إكسبو 2020" في دبي، يكتشف مجدّدا أهمّية دولة الإمارات العربيّة المتحدة التي أسّسها عبقري صاحب رؤية اسمه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، يكتشف المرء كيف استطاعت دولة من دول الخليج العربي ربط نفسها بالمستقبل بعيدا عن عقد الماضي... ولكن من دون التخلي عن أصالتها.

تستضيف دبي معرض "إكسبو 2020" بمشاركة 190 دولة. لم يكن ممكنا استضافة الإمارة مثل هذا الحدث العالمي الفريد من نوعه لولا الإطار العام الذي تجسّده تجربة دولة الإمارات التي تحتفل بعد أيام بالعيد الـ50 لقيامها، ولولا إعداد نفسها للحدث الفريد من نوعه في العالم والذي يفترض أن يجلب 25 مليون زائر في ستّة أشهر. لا غرفة شاغرة في دبي. كلّ ما فيها من بنى تحتيّة حديثة، أقيمت بعيدا عن الفساد والغش، يعمل في ظلّ توافر كلّ الخدمات من كهرباء ونظافة وطرقات... وأمن ونظام وسيادة للقانون.

ما تشهده دبي من نهضة في كنف دولة الإمارات يدعو إلى مقارنة مع دولة منهارة اسمها لبنان أضاعت كلّ الفرص التي أتيحت لها كي تكون دولة متميّزة في المنطقة. كلّ ما في الأمر أن اللبنانيين قضوا، بملء إرادتهم، على بلدهم كونهم لا يعرفون أن ليس لديهم سوى لبنان. لم يعرفوا يوما قيمة لبنان ولا قيمة بيروت. كانت الضربة القاضية الوصول إلى الوضع الراهن، أي إلى بلد رئيس جمهوريته ميشال عون، في حين يحكمه فعلا "حزب الله". لا يمكن توقّع شيء آخر غير البؤس والخراب والدمار والفقر والعزلة في ظلّ هذه المعادلة العجيبة الغريبة المصطنعة.

ما الذي يمكن توقّعه من بلد لا همّ لرئيس الجمهورية فيه سوى إيصال صهره جبران باسيل إلى موقع رئيس الجمهوريّة عندما تنتهي ولايته في 31 تشرين الأوّل – أكتوبر 2022؟ أكثر من ذلك، ما الذي يمكن توقّعه من بلد يمارس فيه رئيس جمهوريّته قناعاته التي في مقدّمها أن "حزب الله" سيفرض جبران باسيل رئيسا للجمهوريّة، كما حدث معه؟

ما تشهده دبي من نهضة في كنف دولة الإمارات العربية المتحدة يدعو إلى مقارنة مع دولة منهارة اسمها لبنان أضاعت كلّ الفرص التي أتيحت لها كي تكون دولة متميّزة في المنطقة

هناك دائما في كلّ مدينة من مدن القارات الخمس مكان لدور أو لكل الأدوار في آن. من يزور دبي هذه الأيّام يكتشف أن المدينة صارت مكانا يتسّع لكل الأدوار. يعود ذلك إلى أنّها جهّزت نفسها كي تكون فضاء لأكثر من مدينة واحدة تجمع بين المال والأعمال والسياحة والخدمات... واستضافة "إكسبو 2020". باتت دبي في العام 2021 مدينة حديثة ومتطورة وآمنة تحلو فيها الحياة لكلّ من يرفض ثقافة الموت.

هزمت دولة الإمارات كلّ العوائق التي كانت تقف في وجه تطورّها، بما في ذلك عائق الطبيعة. استطاعت ذلك بفضل التطلّع إلى المستقبل بدل البقاء في أسر عقد الماضي. هذه العقد جعلت من لبنان دولة من الماضي. يبدو معيبا إجراء أي مقارنة بين لبنان ودولة الإمارات حيث يوجد عقل سياسي بنّاء. اعتمدت الإمارات المنطق وثقافة الحياة فيما تحكمت بلبنان ميليشيا مذهبيّة تابعة لإيران تروّج لثقافة الموت. لم يخف المسؤولون الإيرانيون ذلك عند تحدّثهم عن امتلاك ستة جيوش في المنطقة أحدها "حزب الله".

في "إكسبو 2020"، ولأن دولة الإمارات دولة تتطلّع إلى المستقبل وليست في أسر الماضي، رفع العلم الإسرائيلي إلى جانب العلم الإيراني. تعاطت إيران مع الواقع بعيدا عن المزايدات التي تمارسها في بلد مغلوب على أمره اسمه لبنان دخل، بفضلها، مرحلة المصير المجهول.

ليس "إكسبو 2020" سوى تتويج لنجاح حقّقته دولة متصالحة مع نفسها، أي مع شعبها أوّلا، ومع محيطها. تمتلك هذه الدولة علاقات تعاون مع كلّ دول العالم ومهتمّة بالتغلب على كلّ ما يواجهها من عوائق، بما في ذلك عائق الصحراء. في النهاية، تغلّبت دولة الإمارات على الصحراء. في دولة الإمارات تحقّق المساحات الخضراء انتصارات مستمرّة على الصحراء. من تغلّب على الصحراء هو رؤية الشيخ زايد الذي لم يواجه الصعوبات والعوائق عبر حملات التشجير فحسب، بل ركّز أيضا على المواطن الإماراتي. ركّز على التعليم والصحّة وبناء الإنسان بشكل عام. خدم كلّ القضايا العربيّة بكلّ ما يستطيع، وصولا إلى تقديم نموذج عن دولة تترك الأفعال تتكلّم بدل اعتماد الشعارات الفارغة والخطابات الحماسيّة التي لم تجلب سوى الكوارث.

فوّت لبنان كلّ الفرص التي برزت أمامه من أجل استعادة عافيته. لم يعد له دور في المنطقة. لم يعد جامعة ومدرسة ومستشفى وخدمات مصرفيّة وسياحة واستثمارات. فضّل القضاء على عاصمته بيروت التي أعاد رفيق الحريري الحياة إليها في ضوء ما كان يمتلكه من رؤية. لعلّ أكبر خطأ يرتكبه اللبنانيون بعد انهيار بلدهم وعاصمتهم، الاعتقاد أن دبي حلّت مكان بيروت. هذا ليس صحيحا. دبي أوجدت لنفسها كلّ الأدوار، بقيت بيروت أم لم تبق. كلّ ما في الأمر أن هناك رؤية ولدت مع ولادة دولة الإمارات قبل نصف قرن، رؤية زايد بن سلطان آل نهيان الذي صنع المعجزات، بعيدا عن الفساد، وصولا إلى ما تحقّق الآن في دبي بفضل أبنائها وأبناء كل إمارة من الإمارات السبع. على رأس هؤلاء الشيخ محمّد بن راشد آل مكتوم والشيخ محمد بن زايد وليّ العهد في أبوظبي.

سهّلت الثروة النفطيّة أمورا كثيرة على دولة الإمارات، لكنّ تحقيق أيّ إنجاز لم يكن ممكنا من دون الرهان على الإنسان الذي يظلّ الثروة الحقيقية لكلّ بلد. من يفكّر في الإنسان كثروة، تُفتح أمامه آفاق جديدة، بما في ذلك أفق مرحلة ما بعد النفط وبناء بلد قادر على تطوير نفسه بدل السقوط في فخّ السلاح المذهبي الميليشيوي، الذي يحمي الفساد، ورفع الشعارات الطنانة. وهذا هو الفخّ الذي سقط فيه لبنان...

كانت النتيجة أن لبنان خسر ثروته الأولى، وهي الإنسان. هذا الإنسان الذي سدّت في وجهه كل الأبواب، لكنّه وجد من يرحب بأبنائه من ذوي الكفاءات في دولة تتطلّع إلى المستقبل هي دولة الإمارات. صارت الإمارات من بين الدول النادرة التي ما زالت ترحب باللبنانيين من ذوي المؤهّلات في ما يمكن وصفه بجائزة ترضية لبلد اختار البقاء في أسر الماضي وعقده!

قواعد حاكمة للتعامل بين مصر وحماس

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

لن تتمكن مصر من نبذ حركة حماس التي تسيطر على قطاع غزة. ولن تستطيع الأخيرة الهروب من الحسابات الاستراتيجية للأولى. هذه واحدة من القواعد الحاكمة للتعامل بين الجانبين، أرستها عوامل الجغرافيا السياسية وتداخلاتها الأمنية والاقتصادية، وعززتها الممارسات العسكرية للحركة حيال إسرائيل، فضلا عن تأثيرات القضية الفلسطينية على الأمن القومي المصري.

تفتر العلاقة بين القاهرة وحماس أو تسري في عروقها الحرارة، في الحالتين لا تصل إلى حد القطيعة ولا ترقى إلى مستوى التحالف. كل ما يجري من هبوط أو صعود من وقت إلى آخر يدخل في باب التكتيكات وآليات إدارة العلاقة دون خسائر باهظة.

تبدو هذه المسألة من القواعد المتفق عليها صراحة أو ضمنيا منذ أن أصبحت حماس عنصرا مهما في التوازنات السياسية والعسكرية مع إسرائيل، ورقما رئيسيا في المعادلة الفلسطينية برمتها، ثم تحكمها في قطاع غزة المجاور للحدود المصرية، خاصة عقب تراجع حركة فتح التي ضربها انقسام في هياكلها المختلفة وتزايد الضعف في جسم السلطة الوطنية حتى عجزت عن القبض على زمام الكثير من الأمور.

على الرغم من أن مصر تعرف توجهات الحركة العقائدية وأنها لم تتخل عن علاقتها الوطيدة بجماعة الإخوان المسلمين بعد تعديل ميثاقها، غير أن القاهرة قبلت الحوار معها وتضعها ضمن المصفوفة الرئيسية في القضية الفلسطينية، وغضت الطرف عن الكثير من ممارساتها السلبية في حق الأمن القومي، لأن العداوة أو الخصومة المستمرة معها لهما أضرار أشد جسامة.

تدرك حماس أن مصر تدير معها اللعبة من منطلق مصالحها الوطنية، وكلما ضاعفت قوتها الحركية وراكمت أدواتها العسكرية وباتت طرفا عنيدا لقوات الاحتلال الإسرائيلي زادت أهميتها الحيوية في التوجهات المصرية، ما يمثل كابحا لأي قطيعة بينهما، ورادعا لأي محاولة للتضحية بها، فقد باتت عنصرا مركزيا في الصراع الممتد مع إسرائيل الذي لا تخوضه مصر بصورة مباشرة بعد توقيعها اتفاقية سلام.

قد يعتقد البعض أن قوة حماس العسكرية تمثل خطرا على مصر أو أن ضعف الحركة يعد من قبيل المكسب للقاهرة، وهي مغالطة سياسية، ففي ظل الترهل العام الذي أصاب الحالة الفلسطينية لا يوجد انزعاج من وجود قوة مثل حماس تقوم بدور رأس الحربة ضد إسرائيل التي لا يعني تطبيع العلاقات معها أن الصراع التاريخي قد طويت صفحاته القاتمة.

تأتي مشكلة مصر مع حماس من احتمال شرودها العسكري وعدم انضباطها السياسي وتعدد ولاءاتها بين قطر وتركيا وإيران، وهي من العوامل التي يمكن أن تتصادم مع المصالح المصرية في بعض الأوقات، لكن الخبرة التي اكتسبتها الحركة جعلتها لا تميل إلى هؤلاء كل الميل، ولا تبسط يدها تماما للقاهرة، ومهما اقتربت من الدول الثلاث لن تسمح بأن تجور على علاقتها بمصر في الأجواء التي تخيم عليها الخصومة.

تعلم حماس أن مصر هي الرئة التي يتنفس منها قطاع غزة ومن الطبيعي أن تحافظ على علاقة جدية معها، حيث سيصيبها الاختناق إذا حرمت هذه الرئة من التنفس، أو بكلام آخر من الحركة عبر معبر رفح الذي أضحى شريانا وحيدا يربط غزة بالعالم الخارجي في ظل غلق إسرائيل لجميع المعابر التي تربطه بالضفة الغربية.

مشكلة مصر مع حماس هي احتمال شرودها العسكري وعدم انضباطها السياسي وتعدد ولاءاتها بين قطر وتركيا وإيران، وهي من العوامل التي يمكن أن تتصادم مع المصالح المصرية في بعض الأوقات

تحول الفصل بين غزة والضفة إلى أزمة عميقة لمصر التي وجدت على مرمى بصر من حدودها ما يشبه دويلة إسلامية تلقى دعما من بعض الجهات وتشجيعا من أخرى، ولن يؤدي الدخول في مواجهة معها إلى تحقيق المصالح المصرية خشية أن تتحول إلى بؤرة تتجمع فيها قوى متطرفة من أنحاء العالم.

نجحت القاهرة في عقد تفاهمات لمنع تمركز المتشددين في القطاع واستغلاله ضدها، حيث عانت منطقة سيناء وقت أن استقبلت المئات منهم في سنوات ماضية بصورة ضاعفت من قوة العناصر الإرهابية التي اتخذت من غزة قاعدة خلفية لها عندما كانت عملية السيطرة على الحدود مع القطاع غاية في الصعوبة.

ووقتها تحولت مئات الأنفاق التي جرى حفرها من مصدر لتوريد الغذاء من مصر إلى القطاع إلى مصدر لتهريب المتطرفين والسلاح إلى سيناء، وهي الخطوة التي فرضت على القاهرة تغيير آليات تعاملها مع غزة، أمنيا واقتصاديا.

تمكنت القوات المصرية في خضم حربها ضد الإرهاب من السيطرة على المرور بين سيناء وغزة، فوق الأرض وتحتها، الأمر الذي فرض على حماس قيودا أكبر لضبط سلوكها الأمني والرضوخ لجزء كبير من التصورات التي تحددها القاهرة حيال اللعبة الإقليمية وحدود تصعيد المواجهات مع إسرائيل وعدم التمادي في الخروج عنها.

وفر تحكم مصر في الكثير من القواعد فرصة لكبح جماح حماس عندما تريد زيادة وتيرة الضغوط العسكرية على إسرائيل إلى المدى الذي يقود إلى الانفلات، وهو ما كشفه نجاح القاهرة في نزع فتيل الحرب الأخيرة في مايو الماضي وتمكنها من التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار وقبول حماس به بلا ممانعة كبيرة.

حافظت العلاقة بين مصر والحركة خلال العقدين الأخيرين على شعرة معاوية، إذا شدتها الأولى أرختها الثانية، والعكس، بما يشي أن الشعرة أو اللعبة تتحكم فيهما معايير تم التفاهم عليها بشكل يحافظ على درجة معقولة من دفء لا يسمح بانهيارها.

تعتقد حماس أن اقترابها من القاهرة يضمن لها سندا إقليميا له ثوابت وأسس نحو القضية الفلسطينية ولا يحيد عنها، ويوفر لها غطاء سياسيا يخفف من وطأة انحيازها إلى قوى عقائدية، فمجرد أن تحتفظ الحركة بمسافة قريبة من مصر ربما يكفي لفتح قنوات تواصل مع قوى إقليمية ودولية عديدة تثق في منهج الاعتدال المصري الذي يريد أن يضع حماس تحت عينيه منعا لهروبها إلى جهة تتمكن من توظيفها لأبعد مدى.

تكاد تكون العلاقة مركبة أمنيا وملغمة سياسيا، وهما صفتان أمكن توظيفهما بطريقة إيجابية من قبل حماس، وجعلتا القاهرة تغفر لها الكثير من خطاياها وتجاوزاتها، مع أن قواعد اللعبة لا تقبل المغامرة من الحركة، فعند مستوى معين يهبط سقف الخلاف.

يكمن قلق حماس في شعورها بانحياز مصر إلى حركة فتح والسلطة الفلسطينية ومناصرتها عملية التسوية، وهي محددات فرضت عليها اللجوء إلى المناورة لتقويض الضغوط السياسية الواقعة عليها، وكانت تظهر ملامحها من حين إلى آخر في حوارات الفصائل الفلسطينية المختلفة بالقاهرة، لكن تظل حريصة على عدم قطع شعرة معاوية.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk